خصائص الفن الاسلامي

-١-

لريتشارد ايتنجهاوزن[1]

يبدو الفن الاسلامي حديث العهد من الوجهة التاريخية إذا ما قورن بالفنون القديمة (الكلاسيكية) وان دراسته في المعاهد الأثرية أحدث من ذلك ، إذ لم تمض على دراسته أكثر من جيلين أو ثلاث كما أن ما أكتشف من آثاره القليلة لم يعرف الا منذ زمن قريب. ونأمل أن يستمر التنقيب عن المزيد في المستقبل . ولا زالت دراسة المصادر الأدبية والمادية الخاصة في مراحلها الأولى ، ويجب علينا أن نعرف المزيد عن الظروف الخاصة التي نشأت فيها هذه التحف الفنية . فما زالت هناك مواد كثيرة في متناول اليد وفي حاجة الى البحث والجرونسوو ماسينيون والمرحوم السير توماس أرنولد الفضل في ارشادنا الى بعض المسائل العامة تمهيداً لفهم هذه المسائل جميعها. ومع ذلك فان دراسة المميزات العامة للفن الاسلامي سابقة لأوانها إلا انه يمكن الحصول على نتائج أولية مما أمكن دراسته عن المميزات الفنية الاسلامية في الزمن الحالي .

ولا شك أن الفن الاسلامي قد استمد أصوله من المقومات الفنية التقليدية التي كانت منتشرة في الشعوب الشرقية قبل فتح العرب لها . وقد وصلت اليه بعض هذه المؤثرات بطريقة مباشرة فكانت تقية لا شائبة فيها . كما انتقل اليه بعض آخر عن طريق الساسانيين أو القبط . وهناك مؤثرات خارجية استمدها من الهند . وليس المجال الآن بحث دقة هذه المؤثرات بالفن الاسلامي ، وتطور طرزه وأشكاله ووحداته الزخرفية ، إذ أمكن الاجابة عن الأسئلة الخاصة بنوعها وكميتها إجابة سطحية . ولكن نعوزنا الاجابة عن السبب . وما زالت الاجابة عنه غامضة .

---

(١) مترجم من كتاب الاوت العربي لتيليب حتى وآخرين طبع بمطبعة جامعة برنستون بنيوجرسي سنة ١٩٤٤

وأول العوامل التي يجب ملاحظتها في نشأة الفن الاسلامي هي الاحوال الاجتماعية والدينية في بلاد العرب في عهد النبي عليه السلام . فبالرغم من نفوذ الدين وآثاره الفعالة في هذه الناحية في بيئته وغيرها إلا أنه كان بدائيًا من الناحية الفنية .

كان العرب مجتمعاً بدائيًا مكونًا من الرعاة ما عدا القليل الذي استوطن المدن واشتغل بالتجارة ولم تتعد حياة العرب الصيد والاشتغال بالرعي في الصحراء سابقاً وكلاهما حياة منتقلة تتطلب البساطة في كل شيء كالاكل والملبس والمتاع كما أنها حياة خشنة تعتمد على مواد غير قابلة للكسر حتى لا تحطمها كثرة الارتحال على ظهور الجمال . لذلك لا تتطلب حياتهم الاواني والمواد الزجاجية التي لا تلائمها — ولا شك أن كل المنتجات الفنية الدقيقة التي وجدت في حياة العربي في القرن السادس مستوردة من الخارج كما تدل على ذلك اسماؤها. فكلمة بجّار وخزّاف وصانع الاسلحة والجاك أرمنية الاصل وكلمة معصفر وناقذة وعقد وحداد حبشية الاصل ، وكلمة حرير فارسية المصدر ، ويظهر عدم تذوق العربي للفن الا فيما ورد من إشارات على الاواني القديمة . فيشبه عمرو [1] الشاعر القدير و مقدمة معلقته ساقي المرأة الجميلة بأعمدة رخامية ، وتدبيها بصناديق عاجية ، وكان هذا الاتجاه بارزاً في الشعر الذي كان أعظم فنون بلاد العرب قبل الاسلام . وأكثر من ذلك لم تبلغ الأشياء المستعملة في الحياة اليومية من الدقة الفنية درجة تحاكي بها الطبيعة نظراً لانخفاض فنها كما تحكم في مصائر أمرهم واهتموا بالثروة الحيوانية كتربية الجمال والاغنام لهذا أنف هذا الرجل العربي أن يجهد نفسه في صناعة أي شيء بيديه . بل ترك ذلك إلى من هو دونه منزلة كالمرأة والرقيق والأجانب واليهود فحط مستوى الفنون إلى مستوى هذه الحياة

وقد بلغ من تعالي كرامة أصحاب هذه الطرق وتحقير شأن من يمارسها أن أحدهم أراد أحدهم أن يسخر من غيره فيعيّره بأن أحد أجداده قد اشتغل مع من دونه . أي أنه

(١) هو عمرو بن كلثوم من الجاهليين وهو صاحب المعلقة المشهورة التي يذكر فيها فخر قومه وتغلبهم عليهم . وقد وصف في معلقته حياته في البيتين الآتيين : —

وثرونا مثل حق العاج رخصاً حلالها من أكف لامسينا
وساريتي بلنط أو رخام يزل الضاغطين عليه زلقا

كان حدّاداً أو نساجاً ابن نساج ـ فرسوم (قصير عمراً)[1] التي رسمت بأمر خليفة أموي انحدر من أشراف ﷺ قديماً قام بصنعها فنانون من أصل غير عربي. ويذكر بعض المحدّثين من الرحالة الذين زاروا اليمن أن يهود صنعاء ما زالوا صنّاع تلك الناحية.

ولم تترك لنا ديانة المجتمعات العربية الأولى التي كان يحتمل أن تقدم أو تخلف لنا بعض النشاط الفني شيئاً. وقد عبد العرب الوثنيون في الجاهلية التماثيل بالقرب من الآبار والأشجار وخاصة الأحجار. ولازم هذه العبادة الجاهلية نشاط في أحد فروع النحت وأطلق على التماثيل التي عبدوها أسماء أجنبية كدمية وصررة وصنم، وعبدوا اللاّت في شكل حجر مربع في الطائف، والجلسد[2] في شكل قطعة حجرية بيضاء يعلوها حجر آخر أسود يشبه رأس الانسان إذا نظرت إليه من قرب. أما الكعبة فهي بناء متواضع جدّاً قد استدعى إليها عقب احتراقها نجار يوناني كان عابراً على ظهر سفينة أمام ميناء جدّة لإعادة بنائها وساعده في ذلك صانع قبطي.

هذا يدلنا باختصار على كيفية وصول هذا التراث الفني الى النبي «ص» والذي لم يتطوّر في عهده. وليس أدل على هذه الظاهرة من أنه اعتمد في بناء منزله بالمدينة حيث كان يؤمه المسلمون ويجتمعون فيه جلساتهم في حياته وبعد مماته على الأساليب التقنية المادّية التي كانت سائدة في عهده. وكان لهذا البناء أثر عظيم في الأبنية التي جاءت بعده في العصور التالية. فبنيت جميع المساجد بعد ذلك على نمط هذا المنزل البسيط بإيوانه في جانب من فناء المسجد ومظلته في الجانب المقابل لاقامة الصلاة تحتها وقد قبل النبي هذه الحالة الفنية في عهده وأكسبها مميزات جديدة كان لها أثر فعّال في تطوّر الفن من بعده.

(١) بيت قصيد في بادية الشام في وادي سرحان في شمال شرقي البحر الميت وعلى بعد ٥٠ ميلاً شرقي عمان عاصمة شرقي الاردن. وقد كشفه العالم النمسوي موزيل ١٨٩٨ ويحتمل أنه بني في عهد الوليد بن عبد الملك بين سنتي ٧٠٥ و ٧١٥ واتخذه ليكون مقراً لراحته وقصوفه ويمتاز بنقوشه المختلفة التي من أهم ما تمثل للترك الستة الذين مزمير الامويون

(٢) الجلسد اسم صنم كان يعبد في الجاهلية. وقد ذكره الجوهري صاحب تاج العروس في ترجمة كلمة جمد — على أن اللام زائدة

وقال فيه الشاعر بن بري البيت الآتي للغالب الفيدي، وذكر ابو حنيفة أنه لعدي بن رداع.

نبات يختلب شفاري كما يقر من يعمى الى الجلسد

وركز النبي صلى الله عليه وسلم دعوته المقدسة في الايمان بيوم البعث وهو يوم الحساب حيث يتلقى كل فرد ليقدم ما عمله ، ويلقى عقابه في نار جهنم أو جزاءه في جنة النعيم أمام الله عز وجل المنزه عن الشريك ، خالق جميع المخلوقات ؛ وقد تلقى النبي عليه السلام ما يتعلق بيوم القيامة وقدرة الله عز وجل من اللوح المحفوظ في السماء كما تنزلت على من سبقه من الأنبياء وبلغه كل منهم ، وتنزلت الى العرب على محمد عليه السلام بلغة العرب ، ولم يكن هذا النبي كموسى الذي أظهر المعجزات لفرعون وضرب الحجر ليتفجر منه الماء. ولا كعيسى الذي أشفى المرضى وأحيى الميت بعد موته بأربعة أيام وأبرأ البرص وأطعم الخمس آلاف نفس بخمسة أرغفة وسمكتين . ولم يظهر النبي محمد في حياته بأن له قوة خارقة وإنما اصطفاه الله ليكون رسوله في الأرض ، وليبلغ رسالته في بلاد العرب عن طريق قرآنه الشريف .

وكان لهذه المسائل الأربعة : الخوف من اليوم الموعود (يوم الحساب) والخضوع لله عز وجل — والعمل بما جاء به القرآن الشريف ، والنظر الى النبي كبشر ، أكبر الأثر ، لا في تطور الإسلام كدين فحسب وإنما في الفن الإسلامي . وأدت فكرة الخوف من يوم الحساب الى صبغ الإسلام بروح التواضع . فساعة تقضى في الاعمال الصالحة أفضل من كنوز الأرض وزخرفها .

وتتجنب الفنية المستعملة في الأغراض العامة مهما بلغت قيمتها ما هي إلا رموز لعظمة هذه الحياة ومتاعها التي تغري الإنسان المتكبر بطبيعته لارتكاب الآثام. والاسلام كدين لا يحبذ الترف ولا استعمال الأواني الذهبية والفضية والجواهرات في داخل المسجد لتقديس الله إذ لا حاجة منها . ولا نجد فيه ما يشبه كنوز كتدرائيات العصور الوسطى من تحف وغيرها ما عدا بعض الكنوز الفاطمية . كما امتنع الدين بالمواد البسيطة المتواضعة كالنحاس والطين والملاط واللبن .

وكان لهذا الاتجاه أثر واضح في اختيار أرخص الأشياء كالجص لزخرفة أهم أجزاء المسجد وهو المحراب وقت أن استطاعت فيه ثروة المجتمع أن تتحمل شراء أنفس المواد له .

والاتجاه الآخر هو صبغ المواد الفنية بصبغة شرقية مسايرة لروح الدين في البعد عن

كل ما فيه ترف كما يقول الحديث « من يشرب في إناء من الذهب أو الفضة فانما يجرجر في بطنه ناراً من جهنم » ولم يستعمل قدح من معدن في بلاط إسلامي حتى تلك التي تشبه الأقداح البيزنطية والساسانية واكتفت الطبقات الغنية باستعمال الخزف بدلاً من الذهب والفضة .

والترف من أخص خصائص الانسان ومن المتعذر ألا نجده في مجتمع غني امتد في اكثر الممالك التي ظهرت في التاريخ حبًّا للترف : ولم يتردد بعض الحكام المسلمين في تخطي قوانين المجتمع كما يشجع البعض الآخر للظهور بأسباب الترف والبذخ .

وعندما تمَّ تكوين مجتمع إسلامي تكامل الفن في القرن التاسع الميلادي وظهرت له خصائص خاصة كاستعمال البريق المعدني على الخزف محل الذهب ، والتطعيم بقواقع رقيقة جدًّا من الذهب والفضة على البرونز والنحاس ، في القرون التالية بعد ذلك .

وقد ظهر أثر تعاليم الدين في تطوُّر الفن الاسلامي إلى مدى بعيد جدًّا . ونظراً لعدم ادِّعاء نبي بالمعجزات والقوى الخارقة لم يدع أي احتمال لتطوُّر الطقوس الدينية الاسلامية لتسير موازية لنظيرها في الفن المسيحي في العالم الغربي الذي اعتمد في تصوير حياة المسيح وما فيها من عواطف والمائدة المقدسة والقديسين في تقارير كنيستي الكاثوليك الرومانية والأرثوذكس البيزنطية . ولكن عدم وجود مثل هذه المظاهر حول مؤسس الدين الاسلامي دعت الفنانين المسلمين إلى الاتجاه بفنونهم اتجاهات أخرى ولو كان في العالم الاسلامي تماثيل فان تلك حالات خاصة لبعض الفنانين ، وأعظم المؤثرات التي نادى بها النبي (صلعم) كانت متصلة بالله خالق كل شيء كما جاء على لسان نبيه الكريم ولم يسمح لأحد من الصحابة في مضاهاته في قوته . وكان لتطوُّر هذه الآراء على يد العلماء المتأخرين أثر كبير في تطوُّر الفن . ولم يتحدد نبي (صلعم) طريقاً واضحاً في تحديد موضوعات الفن ، ولم يعرفها إلا القليل من تعاليمه من الناحية الاجتماعية كما بينا سالفاً . أما اتجاهه نحو الفن فقد ورد في إشاراته بشكل عام ودور في ذلك امتداد لوجهة نظر الاسلام نحو الجاهلية فقد حرَّم الأوثان في الوقت الذي حرَّم فيه شرب الخمر ولعب الميسر .

ولا يوجد كتاب في الفن الاسلامي خالياً من الحديث المشهور « من صوَّر صورة فان الله

يعذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها » ويشار فيه أيضاً الى حديث ثان « لاتدخل الملائكة بيتاً فيه صورة » وكلا الحديثين حظر كبير وقدرة كل انسان على تقليد ما خلقه الله . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل شدّد الله عذاب هؤلاء المصورين على لسان نبيه الكريم فقال « ان أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئ بخلق الله » وأدى ذلك الى انحطاط فن النحت وخاصة التصوير الشخصي . وفي مناسبة أخرى قال رسول الله ان أشد الناس عقاباً يوم القيامة لاعن النبي أو من يضل الناس بدون علم وصانع التماثيل والصور . ومن أبي صحفة حرم النبي أخذ ثمن الدم أو ثمن الكلب أو الاكتساب من التاجرة والمرأة الواشمة والمؤشرة والمرات والذي يتعامل بالربا ولعن المصور .

ومن الجدير بالذكر ازدياد الرغبة في تصوير الأشخاص عند ما تحكمات الظواهر الاجتماعية وانتشرت الديمقراطية وتحطمت القيود الاجتماعية التي كانت مفروضة على الفن وصناعته وذلك في القرنين الثاني والثالث من الهجرة . ومن ذلك الحين ظهر الاتجاه الاسلامي نحو الفن ولم تقتصر الفنون على العبيد بل انتقلت الى الكثير من الفنانين الأجانب الذين تركوا دين آبائهم ظهريًّا واعتنقوا الاسلام . وقد ظهر هذا التحول الاجتماعي في ديوان شعر أبي العتاهية المعاصر لمأمون الرشيد في أحد أبياته : وأصبح الفتاح للقفل أو صانع النحاس الذي يخاف الله ويتمسك بتعاليمه لايختلق شيئاً كما أصبح صانع الأسلحة والحداد اللذين كانا محتقرين في المجتمع العربي يفتخران بأن النبي داود وسليمان كانا أجداده في هذه الصناعة .

وتدل الرسوم الآدمية على مدى ما وصلت اليه من الانحطاط الفني . وأصبح تصوير الاشكال الآدمية والحيوانية في المواضع التي يدأها الانسان بقدمه كالسجاد ، يمشي عليها كالوسائد . والفرش كما تعتبر كرامة المصور عند قطعها أثناء حياكتها وتنوع شأنها في الأماكن المظلمة كالدهاليز والحمامات وهي أماكن متنوعة لاتجذب الانتباه إليها ولا تدعوا الى عبادة الأوثان وخصوصاً ما صور منها من الرسوم العارية في الحمامات والأماكن المتنوعة للاقلال من قيمتها وكانت رسوم الخطوط النوع الوحيد المسموح في رسم الصور الشخصية لغرض تربوي .

ويرى الفيلسوف الاسباني ابن عربي [1] في هذه الصور رمزاً حيًّا للعالم . فشبه الانسانية في هذا العالم التي تحركها قوة واحدة — هي الله — بالصور المتحركة وراء شاشة بيضاء فيظهر خيالها على الشاشة .

ويمكن تلخيص كراهية التصوير في المثلين الآتيين أحدهما سلبي ويتمثل في خلو المحراب من الصور والثاني ايجابي وهو عدم وجود تشريع يبيح حضور حفل عرس به صور وتتحدث الكتب المقدسة الاسلامية عن حفل عرس به صور وتتحدث الكتب المقدسة الاسلامية عن حفلات الزواج حين الكلام عن التشريع العام للحياة . فتناقش الأحوال التي يلبي فيها الانسان دعوة حفلة عرس والظروف المباح له حضورها . وفي الحالة الأولى لا يلبي فيها الانسان هذه الدعوة حتى لا تختلط النساء بالرجال ويشربون الخمر وينصتون الى الموسيقى ويستعملون الأواني الذهبية والفضية وحيث تعرض الصور المحرمة

ورسمت الصور ذات الابعاد الثلاث بطريقة تتفق وتعاليم الإسلام الاجتماعية فابتعدت عن الابعاد الخمس أو الست التي تتوافر في رسم للكائنات الحيَّة . وتحولت كل حساسية فيها عند التعبير عنها في رسم التصاوير إلى حالة آلية أكسبت الطراز الفنّ الإسلامي الذي نما في القرن العاشر مميزات خاصة اتسمت بها الفنون الاسلامية بعد . فجميع الاشكال الآدمية مستوية وتظهر كأنها أجزاء رقيقة متجاورة اقتطعت من المعدن أو الورق المقوّى كما هو مبين في رسم الفيل المشهور في نسيج سانت جوس بمتحف اللوفر . ويمتاز بأن قطعه الزاهية . ومثلها صورة الطفل العاقر ويستطيع الانسان أن يحرك خيطاً فتتحرك الصورة ويمثل هذا المظهر الآلي في العصر الاسلامي في تلك الصور المتناقضة الألوان المختلفة الاشكال

وقد استخدم الفنانون طريقة أخرى في رسم هذه الاشياء في العصور الأولى للاسلام قبل اختراع هذا الطراز المتوسط بعد القرن العاشر عندما عادوا الى استعمال الاشكال ذات الابعاد الثلاثة فزخرفت الأواني المعدنية البعيدة القرر بأشكال خاصة لتعرف الناظر إليها من

(١) هو محي الدين عبدالله بن عربي الفيلسوف الاسباني الذي عاش في المدة بين ١١٦٥ و١٢٤٠ . ولد ولد في مرسية وتنقل في أشبيلية ولما بلغ الثامنة والثلاثين من عمره رحل الى مصر وبلاد العرب وبغداد والموصل وآسيا الصغرى ثم قضى باقي حياته في دمشق وهو صوفي مشهور .

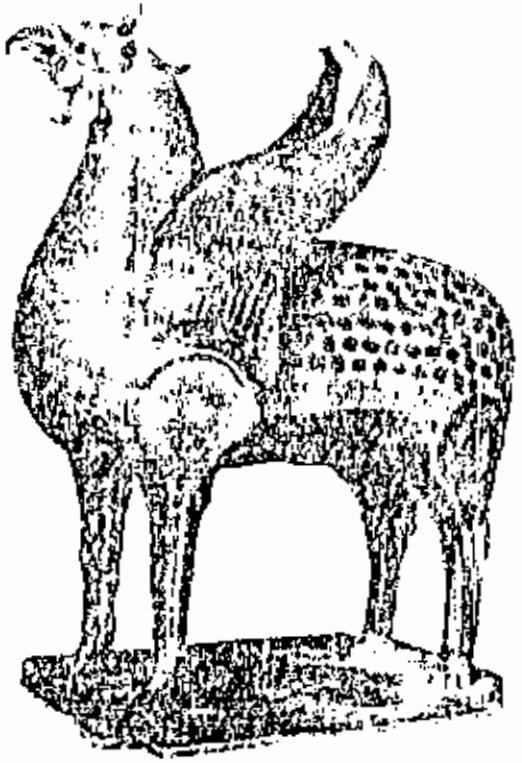

شكل (١)

عقاب من البرونز من القرن الحادي عشر وهو صناعة
مصرية ومحفوظ بكامبو سانتو بيزا بإيطاليا

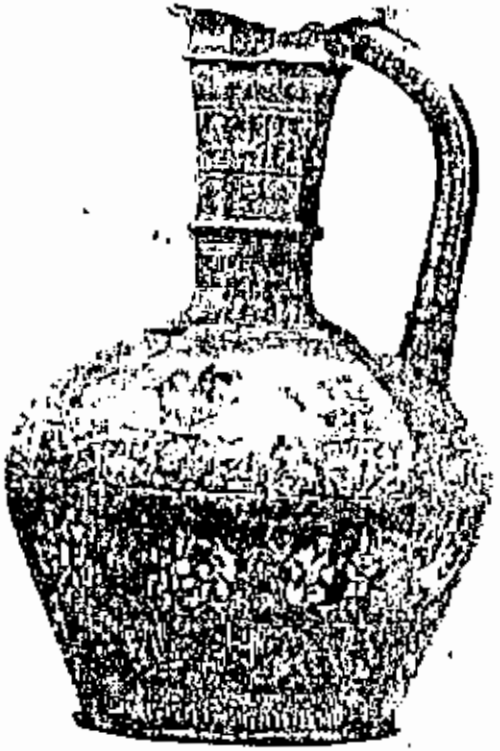

شكل (٢)

اناء من البرونز المكفت بالفضة من صناعة الموصل
في القرن الثالث عشر

حقيقة الاناء نفسه. ظلت هذه الظاهرة واضحة في القرنين السابع والثامن من الميلاد كما يدل على ذلك الطائر المحفوظ في متحف برلين وعقاب سانت كامبو بيزا المشهور شكل (١) وفي كلا التوحتين نجد زخارف محفورة لا علاقة لها بالطائر أو الحيوان نفسه كالفروع النباتية والدوائر الهندسية التي يدخلها حيوانات وطيور صغيرة جداً — كما على القطعة المحفوظة بمتحف برلين — بينما قطعة بيزا نجد عليها زخارف من حيوانات صغيرة وكتابات كوفية تحيط الطائر كله. ونرى في هاتين الحالتين أن الزخارف ليست دقيقة ولا من الأهمية بمكان بل تحتل المرتبة الثانية — ولا تزال هذه الحيوانات سواء أكانت على أكواما نيلا[1] أو مباخر أو جزءاً من قاعدة نافورة جافة الشكل بعيدة عن رسوم الكائنات الحيّة.

وقد أمكن التعويض عن جمود وجفاف إناء بيزا وقتئذ بزخرفته بتعبير رسوم آدميّة محفورة ومكتفية لا علاقة مباشرة لها بشكل الاناء نفسه لكن امتازت هذه الزخارف بتنوعها وبريقها الذي يجذب الأنظار ويصرف الرائي عن شكل الاناء نفسه. شكل (٢)

كذلك يمكن تطبيق هذا على الأواني ذات البريق المعدني وهي أوانٍ كانت ذات سطح جاف غير برّاق استطاع الفنان تخفيف جمود شكلها بتغطية سطحها بزخارف ذات بريق معدني كما هو مبين بالمقدر المغطى بزخارف على شكل تربيعات اتقاشاني المحفوظ في مجموعة دكتور حرش وعلى هذا النسق أمكن تغيير جميع القطع ذات البريق المعدني الموزعة بالمتاحف العالمية بحيث جاءت الرسوم الآدمية مستوية لا بعد ثالث فيها.

إذا أمكن الشخص أن يعرف هذه الظاهرة بوجه عام فان ما يجب عليه قوله هو أن التحف الفنية الاسلامية متواضعة في حقيقتها وقد غطيت بزخارف مثلاً لثة بريئة الغناء وهي عادة تتكون من مادة فيمة متنوعة الشكل. فطريقة التقاشاني الرقيقة اللامعة أو مخارف (مينوركا) التي تغطي الأبنية الجنبية بالجير والطريقة الزجاجية المتعددة الألوان التي تغطي مخارف والمينا فوق المصابيح الزجاجية وتكفيت الأواني المعدنية بقطع صغيرة من الفضة أو الأسلاك الذهبية والورقة الصوفية الذهبية أو الحريرية فوق أرضية من القطن وهذه وأشباهها رسوم مجردة غير طبيعية وهي من خواص الفن الاسلامي وابتكاره. محمد رفيق البيلي

(١) أباريق من النحاس كانت تستعمل لغسل الايدي في العصور الوسطى في الكنائس الغربية.